عوفري إيلاني (*)

دولة اللّيكود: عن صورة الثقافة السياسيّة في إسرائيل المعاصرة

ترمز الانتخابات التي ستُجرى في إسرائيل عام ٢٠١٥ إلى نضوج عمليّة متعدّدة المعاني في السياسة الإسرائيليّة: تحوّل الليكود إلى القوة السياسيّة الهامّة الوحيدة في المنظومة الحزبيّة. وفي ظاهر الأمر، يبدو هذا الادّعاء مبالغًا به: فمن المتوقع أن تحظى قائمة الليكود بخُمس عدد المقاعد فقط من بين ١٢٠ مقعدًا في الكنيست، فيما تشكّل قائمة «المعسكر الصهيونيّ» تهديدًا بتجاوز الليكود من جهة عدد المقاعد. إلاّ أنّ النظر إلى هذه المسألة من منظور واسع، يشير إلى أنّ الليكود والأحزاب الدّائرة في فلكه تسيطر على قرابة نصف عدد مقاعد الكنيست. ويكاد جميع رؤساء قوائم اليمين والمركز أن يكونوا من خرّيجي الليكود، وحتى إنّهم شغلوا مناصب رفيعة فيه. فنفتالي بينت، زعيم «البيت اليهوديّ»، شغل في السابق منصب رئيس طاقم نتنياهو، فيما شغل أفيغدور ليبرمان، زعيم «يسرائيل بيتينو»، منصب مدير عام مكتب رئيس الحكومة أثناء ولاية نتنياهو. وقد شغل زعيم «كُولانو» موشيه كحلون منصب وزير كجزء من حزب الليكود. زدْ على ذلك أنّ المعسكر المُعرّف كـ «يسار» يحوي بداخله ركائز ليكوديّة: فتسيبي ليفني، التي تحالفت مع يعقوب هرتسوغ على رئاسة «المعسكر الصهيونيّ»، كانت عضو كنيست عن الليكود وترعرعت في حزب «حيروت» التنقيحيّ. وعليه، يمكننا أن نرى في هذه الانتخابات ما يشبه الانتخابات الداخليّة بين التيارات المختلفة في الليكود. وفي مقابل ذلك، فإنّ تعداد مُكمّلي درب حركة العمل التاريخيّة يصل نحو ٢٥ مقعدًا.

امتدّت عمليّة سيطرة الليكود على المنظومة السياسيّة الإسرائيليّة على عدّة عقود. وفي السنوات الأولى التي تلت

(*) صحافي وأكاديمي إسرائيلي.

إلاّ أنّ حُكم «مباي» طُوي تدريجيًا طيّ النسيان، فيما أضحت صلته بفهم الواقع الإسرائيليّ المعاصر في تراجع. وفي الوقت الحالي تأسّست هنا قوة أخرى، تنشط وفق منطق آخر. فقد حان الوقت للاعتراف بوجود ثقافة سياسيّة أخرى، لم تُولد من رحم مباي، بل نشأت وتطوّرت من مصادر أخرى: الثقافية الليكوديّة.

اللكيود: أي صهيونية؟

صعود بيغن لسدّة الحكم عام ١٩٧٧، كانت إسرائيل ما تزال خاضعة لهيمنة النخبة القديمة الخاصة بحركة «العمل». وعلى امتداد عقود عديدة، كانت حركة «العمل» ما تزال مقترنة بـ «نواة الإسرائيليّة». وقد نُظر إلى زعماء من حركة «العمل» مثل بن غوريون وموشيه ديان، وإلى أشكال الاستيطان الاشتراكيّ مثل الكيبوتس والموشاف، وإلى مُغنّين وفنّانين مقترنين بـ «إسرائيل القديمة»، مثل نُعمي شيمر وأريك آينشطاين، على أنهم ما زالوا رموز إسرائيل الأساسيّة، حتى حين جلس حول طاولة الحكومة وزراء من الليكود والأحزاب الحريديّة. ورُغم المحاولات الدؤوبة لخرّيجي «حيروت» التنقيحيّين، نسب طرد الحكم البريطانيّ لأنفسهم، إلا أنّ تاريخ الصهيونيّة المُبكر وإقامة الدولة كان ما يزال مقترنًا بحركة «العمل».

لكنّ هذا الوضع بدأ يتغيّر تدريجيًّا. فنخب «مباي» أُبعِدت عن غالبيّة مراكز القوى السياسيّة، وتراخت قبضتها تدريجيًّا على الثقافة أيضًا. وواصل شمعون بيريس، مناصر بن غوريون الأكبر، في هذه الأثناء شغل منصب رمزيّ، كان الهدف الأساسيّ منه الحفاظ على صورة إسرائيل التقدّميّة في العالم– إلاّ أنه اضطرّ هو الآخر لإنهاء ولايته عام ٢٠١٤ واُستبدل بريئوفين ريفلين

تتمثل غائيّة دولة الليكود أولا وأخيرًا في إلحاق الهزيمة بمباي، بدلاً من إلحاق الهزيمة بالعرب. ففي نهاية المطاف، فإنّ مباي هي التي صلبت قدّيسي «حيروت» عندما أغرقت سفينة «ألتلينا» التابعة للإيتسل، وهي الأسطورة المؤسّسة للمعسكر التنقيحيّ. وقد عبّر هذا أحد قادة «حيروت»، شموئِل تمير، الذي دعا في مؤتمر الحزب عام ١٩٥١ بعد إقامة الدولة إلى «تحرير مركز الحُكم من أيدي ين غوريون قبل احتلال الحرم الشريف».

الليكوديّ. ومع وفاة أريك آينشطاين، صوت «إسرائيل القديمة» الأكثر سطوعًا، صار بالإمكان اعتبار هذه السنة اللحظة التي تنحّت فيها نخب «مباي» عن المنصّة، نهائيًا.

ورُغم ذلك، يفضّل منتقدو إسرائيل وداعموها، على السواء، حتى اليوم، وصف الصهيونيّة المعاصرة كظاهرة سياسيّة تمتدّ جذورها إلى صهيونيّة مباي، وهم يتحدّثون عن استمراريّة وتواصل بين مؤسّسي الدولة وبين قباطنتها الحاليّين. وينزع النقد الجاري لمظاهر صهيونيّة معاصرة مثل الاحتلال والمستوطنات نحو اقتران منشأ هذه المظاهر مع الصهيونيّة الكلاسيكيّة. وبالفعل، فإنّ نكبة ١٩٤٨ واحتلال ١٩٦٧ وحتى بداية مشروع الاستيطان، كانت كلّها مُنجزات لحكومات مباي.

إلاّ أنّ حُكم «مباي» طُوي تدريجيًا طيّ النسيان، فيما أضحت صلته بفهم الواقع الإسرائيليّ المعاصر في تراجع. وفي الوقت الحالي تأسّست هنا قوة أخرى، تنشط وفق منطق آخر. فقد حان الوقت للاعتراف بوجود ثقافة سياسيّة أخرى، لم تُولد من رحم مباي، بل نشأت وتطوّرت من مصادر أخرى: الثقافية الليكوديّة.

ومن الناحية الجوهريّة، ليس من المرجّح بالضرورة أنّ حُكم الليكود الحاليّ ما زال حُكمًا صهيونيًا، على نفس النسق الذي يفيد بأنّ حُكم بن غوريون كان صهيونيًا. فالليكود ليس صهيونيّة مَبابيّة مُعزّزة- وهو في الكثير من النواحي مناقض لصهيونيّة مباي.

أمّا في البعد الأيديولوجيّ، فإنّ تعامل الصهيونيّة الليكوديّة مع صهيونيّة بن غوريون ينطوي على التضادّ. فعلى سبيل المثال، يمكننا مقارنة هذه الصهيونيّة بتعامل الصهيونيّة التقليديّ مع التوراة وشعب إسرائيل. فالتوراة هي جزء من الكتب المسيحيّة المقدّسة، إلا أنّ قصة تأريخ شعب إسرائيل تُقرأ أحيانًا باعتبارها فئة خاصة باليهود بالذات، وفي أحيان أخرى كحكاية رمزيّة حول حياة يسوع. وعلى غرار هذا، فإنّ إسرائيل الخاصة بإسحق شمير ونتنياهو تقوم على إسرائيل الخاصة بن غوريون ورابين، ولذلك فإنّ نتنياهو لن يستأنف بشكل مطلق على شرعية نظام الحُكم الذي سبقه؛ ومع هذا، فإنّ غائيّة دولة الليكود تتمثل أولا وأخيرًا في إلحاق الهزيمة بمباي، بدلاً من إلحاق الهزيمة بالعرب. ففي نهاية المطاف، فإنّ مباي هي التي صلبت قدّيسي «حيروت» عندما أغرقت سفينة «ألتلينا» التابعة للإيتسل، وهي الأسطورة المؤسّسة للمعسكر التنقيحيّ. وقد عبّر هذا أحد قادة «حيروت»، شموئِل تمير، الذي دعا في مؤتمر الحزب عام ١٩٥١ بعد إقامة الدولة إلى «تحرير مركز الحُكم من أيدي ين غوريون قبل احتلال الحرم الشريف».

وقد تحقّق هذا النداء في نهاية المطاف. فوفقا لثقافة نتنياهو وبينت وليبرمان، لم يعد بالإمكان تحقيق وريث لإسرائيل الخاصّة بن غوريون وغولدا مئير. فهو يتمتّع بموروث آخر ولاهوت آخر وجذور في أماكن أخرى.

تشكّل اللحظة التاريخيّة الرّاهنة فرصة لفحص ماهيّة حُكم الليكود والثقافة السياسيّة التي يقوم عليها. ويجب علينا بادئ ذي بدء أن نسأل عمّا يمكن قوله عن الليكود ليكون مختلفًا عن النقد العاديّ والعام بخصوص «الصهيونيّة». وفي الصفحات التالية، سأحاول رسم مميّزات الأسس الجوهريّة الموجودة في الأيديولوجيّة وفي رؤية التاريخ من وجهة نظر الليكود، من خلال معارضتها مع الأيديولوجيّة الصهيونيّة الخاصة بمباي.

* * *

مناحيم بيغن: صورة من البدايات، وفي الخلفية جابوتنسكي.

أجرت شوشناه جباي مؤخّرًا، تحليلًا للشكل الذي هدمت فيه الصهيونيّة النخب اليهوديّة المدينيّة في الدول الإسلاميّة، وعرّفت الصهيونيّة على أنّها أيديولوجيّة ثوريّة متطرّفة. وأشارت جباي إلى أنّ مندوبي الحركة الصهيونيّة رأوا أنّ النخب اليهوديّة الشرقيّة «كانت متكافئة بنظرهم مع طبقة النبلاء الروس المنحلّة التي قُضي عليها من أجل استلام قيادة الشعب». وبالفعل، يجري في ضمن الكوكبة السياسيّة الحاليّة، وفي إطار النقد الأكاديميّ على الصهيونيّة كمشروع كولونياليّ، تغييب حقيقة أنّ صهيونيّة مباي، وكما تبلورت في العقود الأولى للقرن العشرين، كانت حركة يساريّة ثوريّة. ولا يتناقض تعريف الصهيونيّة بأنها «كولونياليّة مستوطنين»، بالضرورة، مع طابعها الثوريّ. ومن الجائز أنّ الدمج بين هذين الميزتيْن يقع في ضمن الأسس الخاصّة بالصهيونيّة كظاهرة سياسيّة. وقد جرت في الكثير من الحالات صياغة نشاطات الصهيونيّة الكولونياليّة من خلال الاستعانة بمصطلحات ثوريّة– اشتراكيّة. وينسحب هذا على مبادئ مختلفة مثل «العمل العبريّ»، والتي وصفتها قيادة الصهيونيّة بأنّها عملية عصرنة لعلاقات العمل في فلسطين التاريخيّة، لغرض تحريرها من شروط الإنتاج العدائيّة. وقد نزعت القوة الأكثر يساريّة في حركة العمل التاريخيّة، وخصوصًا حزب «أحدوت هَعَفُوداه» برئاسة إسحق طبنكين ويسرائيل جليلي ويغآل ألون، هي أيضًا، نحو «الفاعليّة» في المجال الأمنيّ، ما يعني توجّهًا متصلّبًا وعدائيًا مع السكان الفلسطينيّين. وقد كان هذا الموقف «الفاعليّ» مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا لدى أعضاء أحدوت هعفوداه بأيديولوجيّة «الاشتراكيّة العلميّة» التي رفعوا رايتها، والمتمحورة في الصراع الطبقيّ. وقد سُوّغ طرد الفلسطينيّين عام ١٩٤٨، أيضًا، بهذه المصطلحات، باعتباره «عصرنة» لمناطق أرض إسرائيل، كانت ضروريّة في إطار السببيّة التاريخيّة. وقد استعان ستالين بمصطلحات مشابهة عند عرضه «**حملة القضاء على طبقة المزارعين الأغنياء**» كمرحلة ضروريّة في ضمن التحديث والتصنيع في المجتمع السوفييتي.

مع ذلك، كانت صهيونيّة بن غوريون التي تبلورت في سنوات الخمسين قد تضمّنت فعلاً نفي هذا البعد الثوريّ، في إطار البرنامج البنغوريونيّ الخاص بالانتقال «من مكانة إلى شعب». ووفقًا لرؤيا بن غوريون فإنّ الثورة الصهيونيّة كمشروع يحمله الأفَنْجارد المَبايي تهدف للتثبّت ولاستبدالها بمبنى دولة دائم، فيما حُوّلت المؤسسات الحركيّة إلى مؤسسات قوميّة. ويشير نير كيدار في كتابه عن الأيديولوجيّة «الرسميّة» الخاصّة بن غوريون، إلى خشية زعيم مباي من تحوّل حزبه إلى حزب يساريّ استعلائي

لا شكّ في أنّ هذه النبوءة بخصوص خطورة الخطاب التاريخيّ- المذعور قد تحققت أيام حكم الليكود، وما تزال قوّتها في ازدياد من عام إلى آخر. وتستند أيديولوجيّة الدولة الرسميّة اليوم على الهستيريّة التأريخيّة التي تقضي بالتعامل مع الراهن وكأنّه انعكاس متكرّر للكوارث التاريخيّة. وعلى هذا النسق تحوّل يوم المحرقة إلى المدماك الأساسيّ في الرزنامة الإسرائيليّة. ويحوي هذا اليوم في طيّاته كلّ التهديدات الحقيقيّة والمتخيّلة المحيطة بإسرائيل.

وفوقيّ. ولذلك كان يسعى لتعزيز التحالف مع أحزاب مدنيّة غير اشتراكيّة مثل الصهيونيّين العموميّين والصهيونيّة الدينيّة. وتعزّز هذا النهج في حزب رافي الذي أسّسه بن غوريون برفقة رفيقيه المخلصين موشيه ديان وشمعون بيريس، ليبرز أكثر في «القائمة الرسميّة»– وهي القائمة الصغيرة التي تزعّمها في سنواته الأخيرة في السياسة، والتي كانت شريكة في الحركة من أجل أرض إسرائيل الكبرى.

في مقابل ذلك، كان تعامله بن غوريون مع «حيروت» تعاملاً سلبيّ المنهج بوضوح. فقد تعامل هو وتابعوه مع مناحيم بيغن على أنه فاشيّ خطير، واتهموا اليمين بلا هوادة بأنه «هستيريّ». ورُغم أنّ مواقف أفراد «حيروت» كانت قوميّة أكثر من مواقف مباي، إلا أنهم أُتهموا بأنهم يؤمنون بصهيونيّة معطوبة وحتى منحرفة، ونُظر إليهم على أنهم منفويّون وأنثويّون وذوو شخصيات ضعيفة.

ويتعلق اتهامهم بـ «الهستيريّة» بشكل جوهريّ بأيديولوجيّة مباي لـ «نفي المنفى»، وهي تشكّل نقدًا ذا مميزّات لا ساميّة ضدّ المجتمع والثقافة غير المنتجين في المنفى، وحتى ضدّ روح وجسد اليهوديّ المنفويّ. ومع ذلك، قد تكتسب تشخيصات شخصيّات مباي في فترة حُكمها قيمة ما، في سعينا من أجل رسم مميّزات خاصّة لجوهر أيديولوجيّة حيروت– الليكود. فعلى سبيل المثال، وصف الصحافيّ حاييم آيزك خطاب حيروت من على صفحات «دفار»، لسان حال مباي، عام ١٩٧٠:

لقد بدأت نذائر الخطر الحقيقيّ بالظهور: فهي تتمثل بفقدان أيّ تناسبيّة سويّة بتوجيه النقد، وبتعزيز الهستيريّة القوميّة التي على شفا المازوخيّة، وبمحاولات تأليب الشارع –و«حيروت» هشّة أمام هذا الأمر منذ لحظة تأسيسها– من خلال الاستعانة بوسائل تدليسيّة رخيصة. والأقوال التي تدور في الأيام الأخيرة على لسان مناحيم بيغن حول «مقترحات الخراب» الأميركيّة تنذر بما تخبّئه «جاحل» {...}. ويعني «الخراب» «متساده» ويعني «جيتو وارسو»، ويعني الحرب حتى نقطة الدم الأخيرة، ويعني الانتحار. إنّ لعبة الترابطات في الذكريات التاريخيّة المشتعلة هي خطيرة ويمكن أن تؤدّي إلى تشويش المقاييس والمعايير والحؤول دون معاينة الأمور باتزان.

لا شكّ في أنّ هذه النبوءة بخصوص خطورة الخطاب التاريخيّ– المذعور قد تحققت أيام حكم الليكود، وما تزال قوّتها في ازدياد من عام إلى آخر. وتستند أيديولوجيّة الدولة الرسميّة اليوم على الهستيريّة التأريخيّة التي تقضي بالتعامل مع الراهن وكأنّه انعكاس متكرّر للكوارث التاريخيّة. وعلى هذا النسق تحوّل يوم المحرقة إلى المدماك الأساسيّ في الرزنامة الإسرائيليّة. ويحوي هذا اليوم في طيّاته كلّ التهديدات الحقيقيّة والمتخيّلة المحيطة بإسرائيل، وهو يُكرّس في السنوات الأخيرة بغالبيته الكبرى للتخويف من خطر «التهديد الإيرانيّ». ويقوم قباطنة الدولة في هذا اليوم بمقارنة المشروع النووي الإيرانيّ، مرة بعد أخرى، بمشروع الإبادة النازيّ، لدرجة أنه بالإمكان اليوم نعت يوم المحرقة بـ «يوم إيران».

وفي ضمن هذا الإطار الفكريّ، الذي يميّز إسرائيل الليكوديّة، ترهّل الماضي التاريخيّ تمامًا وتقلّص لينحصر في ضمن حدث واحد: المحرقة. وعندما كان الناس في العصور الوسطى يتطرّقون إلى الماضي، كانوا يرون فيه حدثيْن اثنيْن فقط: خلق العالم وصلب المسيح. وعلى غرار ذلك، يرى الفرد في دولة الليكود حدثيْن اثنيْن:

عليه، يجب أن نتذكّر أنّ التماثل الجارف مع «قدسيّات المحرقة» هو الميزة الساطعة لمدارك الواقع الليكوديّة، والتي غابت بشكل شبه تام عن صهيونيّة مباي. وتشير الأبحاث الكثيرة التي أجريت في العقود الأخيرة، إلى احتقار بن غوريون لسلبيّة وخمول اليهود المذبوحين، نافيًا الاستمراريّة بين يهوديّة المنفى وبين الأمّة الإسرائيليّة. ولم يأتِ من فراغ ادعاء الفيلسوف يشعياهو لايفوفتس بأنّ بن غوريون كره الشعب اليهوديّ، فيما كان بيغن يحبّه.

"بن غوريون كره الشعب اليهودي، وبيغن أحبه".

خلق العالم والمحرقة. وقد هُمّشت إقامة دولة إسرائيل هي أيضًا في ضمن ذلك.

عليه، يجب أن نتذكّر أنّ التماثل الجارف مع «قدسيّات المحرقة» هو الميزة الساطعة لمدارك الواقع الليكوديّة، والتي غابت بشكل شبه تام عن صهيونيّة مباي. وتشير الأبحاث الكثيرة التي أجريت في العقود الأخيرة، إلى احتقار بن غوريون لسلبيّة وخمول اليهود المذبوحين، نافيًا الاستمراريّة بين يهوديّة المنفى وبين الأمّة الإسرائيليّة. ولم يأتِ من فراغ ادعاء الفيلسوف يشعياهو لايفوفتس بأنّ بن غوريون كره الشعب اليهوديّ، فيما كان بيغن يحبّه.

وقد ترافقت هذه المدارك في خطاب «حيروت»، مع الذعر الكبير من الشيوعيّة واليسار العالميّ، ومن قيم الثورة الفرنسيّة بشكل كبير أيضًا. وقد حذّر بيغن في سنوات الخمسين، مرةً تلو الأخرى، من غزو سوفييتي إلى البلد، وحتى أنه دعا إلى إقامة جيش متطوّعين يهوديّ من أجل ردع هذا الهجوم.

إلاّ أنّ الإعجاب بالحانوتيّ والنزعة البرجوازيّة الليكوديّة متعلّقة بشكل خاص جدًا بالشعبويّة، التي تميّز هذا الحُكم. وخلافًا لطوعيّة مباي التي سعت لتحسين الشعب ولخلق كيان جديد من «غبار الإنسان»، فإنّ ثقافة الليكود تبدي إعجابها بالشعب بوضعه القائم. وتتدحرج هذه الشعبويّة، في أشكالها الأكثر تطرّفًا، نحو ظواهر مشابهة للفاشيّة. ولماذا نقول «مشابهة»؟ لأنّ المجتمع الليكوديّ هو فوضويّ على نحو ما، ويفتقر للانضباط والمسلكيات المجتمعيّة المتصلّبة.

وأشار يعقوب شبيط إلى أنّ جذور المثاليّة السياسيّة الخاصّة بالتنقيحيّين تعود إلى القوميّة البولنديّة. وقد اتخذ أتباع جابوتنسكي مثالا أعلى تمثّل في شخصية القائد البولنديّ المارشال يوسف بيلسودسكي. وقد كان هذا مصدر الوحي من وراء تقديس شخصية جابوتنسكي البطوليّة باعتباره قائدًا قوميًا محافظًا. وبالفعل، كان النهج المحافظ والتشكيك في أيّ تعبير عن الصراع الطبقيّ، أساسًا مركزيًا آخر في ثقافة الليكود السياسيّة، يناقض بشكل ساطع وجليّ الصهيونيّة بهيئتها المَبابيّة. وفيما كانت صهيونيّة بن غوريون نافية للمنفى وللشخصية اليهوديّة المنفويّة المشتغلة بالتجارة، قام جابوتنسكي وتلامذته بالإشادة بهذه الشخصيّة، شخصية «الحانوتيّ». وادّعى جابوتنسكي أنّ معظم الثقافة الروحانيّة هي «وليدة الحانوتيّ»، الذي يشكّل «أوّل حاملي لواء الحضارة».

وقال المؤرّخ طوني جادت إنّ هذه المواقف المحافظة كانت مواقف أقليّة في العقود التي تلت الحرب العالميّة الثانية، وهي فترة ازدهار دولة الرفاه و«المجتمع الكبير»، إلا أنّها ازدهرت في سنوات الثمانين مع تفكّك الإجماع الما بعد حربيّ. وقد أشاد ريغن وتاتشر وجيسكر–دستن بقيمة المبادر الذاتيّ، إذ إنّ صعود الليكود لسدة الحكم في ١٩٧٧ يُعتبر جزءًا من هذا النهج. صحيح أنّ الانقلاب السياسيّ الذي تحقق في أعقاب الفساد والتحلل في حُكم مباي، سبق التحوّل السياسيّ الذي حصل في الدول الغربيّة بعدّة سنوات، إلاّ أنّ تطبيق سياسة اللّبرلة وإلغاء الدعم الحكوميّ وكسر النقابات بدأ فعليًا عام ١٩٨٥، في إطار خطة التقليصات والإصلاحات التي أدّت إلى تفكيك دولة الرفاه الإسرائيليّة تدريجيًا. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تدّعي نُعمي كلاين في كتابها «عقيدة الصدمة»، أنّ إسرائيل شكّلت مختبرًا لم ينحصر في منظومات الأسلحة الأميركيّة، بل تعدّى ذلك إلى «وسائل صدمة» ماليّة طوّرها اقتصاديّون نيو ليبراليّين من مدرسة شيكاغو.

إلاّ أنّ الإعجاب بالحانوتيّ والنزعة البرجوازيّة الليكوديّة متعلّقة بشكل خاص جدًا بالشعبويّة، التي تميّز هذا الحُكم. وخلافًا لطوعيّة مباي التي سعت لتحسين الشعب ولخلق كيان جديد من «غبار الإنسان»، فإنّ ثقافة الليكود تبدي إعجابها بالشعب بوضعه القائم. وتتدحرج هذه الشعبويّة، في أشكالها الأكثر تطرّفًا، نحو ظواهر مشابهة للفاشيّة. ولماذا نقول «مشابهة»؟ لأنّ المجتمع الليكوديّ هو فوضويّ على نحو ما، ويفتقر للانضباط والمسلكيات المجتمعيّة المتصلّبة. ويفرض المجتمع الليكودي نفسه في مقدّمة نضال «الشعب» ضدّ النخب الثقافيّة والأكاديميّة والقضائيّة، وهو بذلك يحقق تضامن ذلك الشعب مع جهاز الدولة: فالمواطن يكنّ مشاعر الشكر للدولة اليهوديّة، التي تسمح له بالتصرّف كهمجيّ. وهناك تشكيلة واسعة من الظواهر في إسرائيل في العامَيْن المنصرمَيْن تحمل مظاهر العنف الثوريّ المتأتي من الضواحي باتجاه المركز، برعاية سلبيّة الدولة وخمولها.

وفي العموم، تنشط المؤسّسات في إسرائيل وفق نموذج اجتماعيّ عرّفته الأنثروبولوجيّة دفوراه غولدن بأنّه «تسيّب مُمَأسَس». وفي غالبيّة الأطر، من جهاز التعليم وحتى الجيش والخدمات العامّة، لا يسود جوّ رسميّ ولا تُطبّق سلطة قويّة. ويستند الانضباط المجتمعيّ على التضامن والطوعيّة مقابل الدولة، التي تتماثل مع العائلة والشعب. ولا يُنظر إلى إطاعة الضوابط الاجتماعيّة على أنها خضوع للسلطة بل باعتبارها علاقة حميميّة ودافئة وشعوريّة. ويُنظر إلى النظام الاجتماعيّ كأمر طبيعيّ مثل العائلة، بما لا يُلزم حتى بتوضيح أو تسويغ الطاعة. وهذا بحدّ ذاته، وبشكل كبير،

فاشيّة «خفيفة». ويُستخدم الجيش في ضمن هذا المبنى، وخصوصًا الضباط رفيعو المستوى، كعنصر لاجم موجّه للداخل، إلى جانب كونه ما يشبه المراقب من طرف الأسياد الحقيقيّين: الأميركيّين.

* * *

بناءً على ما تقدّم، أشرنا إلى عدّة مميّزات أساسيّة للثقافة السياسيّة التنقيحيّة، تقبع في جذور وأسس العقليّة الليكوديّة، من أجل أن نبيّن أنها تختلف بشكل جوهريّ عن صهيونيّة بن غوريون. وبالأساس، نحن نتحدّث عن ثلاثة مركّبات: تحنُّث استحواذيّ للمحرقة والتعامل مع الراهن على أنه انعكاس لها؛ المحافظة والهلع من الصراع الطبقيّ؛ والإعجاب بالشعب بوضعيته الحاليّة. لكن ما تبقى علينا الحديث عنه هو طرح السؤال التالي: هل الليكوديّة الآنيّة، كما تنعكس في شخصيّة نتنياهو وليبرمان وبينت، تشكّل حقًّا استمرارًا مباشرًا لتلك التنقيحيّة الكلاسيكيّة على طراز جابوتنسكي وبيغن وشمير. أم أنّ نظام حُكم نتنياهو يشكّل في واقع الأمر ظاهرة سياسيّة جديدة تخصّ العقد الأخير، وهي تكتفي بحمل الاسم ذاته؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الصهيونيّة الآنيّة، إذًا؟

في نهاية المطاف، فإنّ التقاليد الأساسيّة للثقافة السياسيّة في إسرائيل تتمثل في غياب التقاليد. واليوم، يتجسّد النّهج السياسيّ في إسرائيل في الدمج بين الصهيونيّة الاستيطانيّة وفق طراز مباي وبين الشعبويّة المَنفويّة الخاصّة بالليكود. وقد انضافت إلى هذا النهج في السنوات الأخيرة طبقة أخرى جديدة: الصهيونيّة كمشروع كونيّ. ومن أجل توضيح هذه المقولة الأخيرة، سأهمل في هذه المرحلة التحليل التاريخيّ، وسأعرض بشكل تزامنيّ ثلاثة أشكال للصهيونيّة القائمة اليوم في إسرائيل، بشكل متوازٍ.

سأسمّي النوع الأول من الصهيونيّة المتعارف عليها في إسرائيل «الصهيونيّة الذاتيّة»، التي تقف في صلبها المدارك الأساسية التالية: «أنا أريد مواصلة الحياة. أنا يهوديّ. اليهود يتعرّضون للخطر على مرّ التاريخ. ولذلك أنا بحاجة لدولة يهوديّة مسلّحة تدافع عنّي». هذا نموذج من الصهيونيّة منتشر جدًا في إسرائيل العلمانيّة، وباستثناء البقاء والصَّوْن الذاتي اليهوديّ، فإنها تكاد تفتقر لأيّ أيديولوجيّة. ومن هذا الباب، فهي صهيونيّة بالحدّ الأدنى.

يمكن تسمية النوع الثاني بـ «الصهيونيّة القوميّة»، والمدارك التي تقف في صلبها تقول: «أنا أريد أن يواصل الشعب اليهوديّ الحياة. يجب أن يكون الشعب اليهوديّ مخلصًا لأرض إسرائيل. وإذا لم نكن مخلصين لأرض إسرائيل فلن نكون يهودا، وعندها سنخسر. ولذلك من المُجدي التضحية بحياتي الذاتيّة وبحيوات الكُثر غيري من أجل خلود الشعب، الذي عاش قبلي وسيعيش بعدي».

صار مثل هذا النوع من الصهيونيّة حاضرًا بقوّة في السنوات الأخيرة، وهو متعلق بالأساس بحزب «البيت اليهودي» القوميّ–المتديّن، ولكن بأحزاب يمينيّة أخرى.

أمّا النوع الثالث فيمكن تسميته «الصهيونيّة الكونيّة»، وهي تستند في أساسها على الافتراض القائل إنّ الصهيونيّة هي حاملة لواء المبدأ الكونيّ: الحرب الدائرة بين المتنوّرين والظلاميّين. معسكر الظلاميّين هو الإسلام، وخصوصًا إيران، ومعسكر المتنوّرين هو إسرائيل وكل من يحارب إلى جانبها. والحرب التي تقودها الصهيونيّة تتجاوز الإنسان الفرد وتتجاوز الشعب اليهوديّ أيضًا. وفي اللحظة التي ستتوقف فيها الصهيونيّة عن خوضها لهذه الحرب فإنّها ستُمنى بالهزيمة، وسيغرق العالم في وطأة الظلام.

تتبنى هذا النموذج مجموعة أيديولوجيّة صغيرة ولكن مركزيّة، وعلى رأسها بنيامين نتنياهو. وهي تتجسّد في خطابات نتنياهو في الأمم المتحدة والكونغرس الأميركيّ، والتي يتحدّى فيها قيادات العالم. ويظهر نتنياهو في هذه الخطابات كبطل تتلخص مهمته في الانتصار على إيران وحلفائها باسم «الغرب». ويلتزم نتنياهو، بقدر أكبر من أيّ رئيس حكومة في السابق، بتربية الجنس البشريّ، أي ببشارة الكنيسة الصهيونيّة–الإنجيليّة الكونيّة. ولا عجب أنّه يتدبّر أموره بشكل ممتاز مع الإنجيليّين المسيحيّين، الذين لا يرون بالشعب اليهوديّ إلاّ أداة في الطريق إلى حرب يأجوج ومأجوج. ويرى الصهيونيّون الكونيّون أنّ مهمة اجتثاث الظلام لا تقع إلاّ على إسرائيل.

وتدريجيًّا، بدأت الحرب ضدّ إيران والإسلام بالتحوّل إلى المنطق الحصريّ الكامن في صلب إسرائيل، ولم يعد ذلك يتمثّل في تأسيس أمّة عبريّة (على غرار صهيونيّة مباي) ولا حتى في صراع بقاء الشعب اليهوديّ (على غرار صهيونيّة حيروت)، بل في الانتصار على الإسلام. ومبدئيًّا، فإنّ هذه الغاية تبرّر حتى اختفاء الشعب اليهوديّ. إنّ الانتصار على الخطر الإسلاميّ أكثر أهميّة عند أتباع هذه الأيديولوجيّة من الوجود الماديّ الملموس.

وحتى لو تلاشى ضرب إيران بشكل ما في هذه الآونة، بمساعدة حرب أخرى مثلاً، فإنّنا نشهد أيديولوجيّة كئيبة وقياميّة، مستعدّة لبذل كلّ ما أوتيت من أجل تكريس نفسها وشعاراتها، حتى لو كان ثمن ذلك الحياة نفسها.

[مترجم عن العبرية. ترجمة علاء حليحل]